سلسلة المقالات المنهجية

(١٦)

حَقِيقَةُ مَرَضِ الدِّينِ وفِقْهُهُ وأسبابُ الشِّفاء منه

كتبه

الباحث الشرعي الدكتور/

عيد بن أبي السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ أمَّا بعد:

فهذه كلمات يسيرة في حقيقة مرض الدين وفقهه، ومن يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، فيَنْصلح شَأنُه وأمْرُه ودينُه بالفهْم والتبيين، ولقد أقمت هذه المقالة علىٰ جملة نقاط توضّح المراد:

النقطة الأولى: في معنى الحقيقة:

فقد روىٰ الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٦٦) والعقيلي في «الضعفاء» (٦٨٠٦) والبيهقي في «شُعب الإيمان» (١٠١٩٤) عن أنس بن مالك قال: بينا رسول اللَّه ﷺ يمشي إذْ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النَّبِيّ ﷺ: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**»، فقال: أصبحت مؤمنًا حقًّا، قال: «**انظر ما تقول، فإنَّ لكل قول حقيقة**» قال: يا رسول اللَّه، عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا، فأسْهَرْتُ ليلي، وأظمأت نهاري، وكأنّي أنظر إلىٰ عرش ربِّي بارزًا، وكأنّي أنظر إلىٰ أهل الجنَّة في الجنَّة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلىٰ أهل النَّار كيف يتعاوَوْن فقال: «**أبصرت فالزم، عبد نوَّر اللَّه الإيمان في قلبه**»، وفي رواية: «**يا حارث عرفت فالزم**» قالها ثلاثًا.

قال العقيلي بعد الحديث: «ليس لهذا الحديث إسناد يثبت». اهـ.

قلت: وإن كان الحديثُ ضعيفًا سندًا، غير أنَّ معناه متنًا ولفظًا مقبول وعليه العمل؛ لأنه موافق لأصول الدين، ولذلك استشهدت به لبيان معنىٰ الحقيقة.

وقد روىٰ ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٧٤) من حديث عمر رضي الله عنه **موقوفًا من كلامه قال:**

«لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتىٰ يَعُدَّ النَّاس حمقىٰ في دينه»، ومن كتاب جزء البغوي ص(٦٦) حديث (٢٩) عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يُحبّ للنَّاس ما يحبُ لنفسه**».

قال ابن الأثير في: «النهاية» (١/ ٣٩٨):

«الحقيقة: ما يصير إليه حق الأمر وَوُجوبه، ومنه قولهم: «فلان حامي الحقيقة» إذا حَمَىٰ ما يجب عليه حمايته، وفيه: «لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتىٰ لا يعيب مُسلمًا بِعَيْبٍ هو فيه» يعْني خالص الإيمان ومحْضُه وكُنْهُهُ». اهـ.

وقال الراغب الأصّفهانيّ في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ١٢٦):

«والحقيقة تستعمل تارة في الشيء الذي له ثبات ووجود كقوله ﷺ: «**كل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟**»؛ أي: ما الذي يُنبّئُ عن كون ما تدعيه حقًّا؟ وفلان يحمي حقيقتهُ أي: ما يحق عليه أن يُحْمَىٰ، وتارة تستعمل في الاعتقاد، وتارة في العمل والقول فيقال: فلان لفعله حقيقة إذا لم يكن مُرَائيًا فيه، ولقوله حقيقة إذا لم يكن فيه مترخصًّا ومستزيدًا، وقيل للدنيا باطل -من الدّنوّ- والآخرة حقيقة؛ تنبْيهًا علىٰ زوال هذه وبقاء تلك». اهـ.

قلت: وذكر السيوطي في «الجامع الصغير» (**٩٩٤٣**) وصححه، من حديث أنس عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتىٰ يَخْزُن من لسانه**».

قال المُناويّ في: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٦/ ٥٧٨):

«قوله: «**لا يبلغ**»، في رواية: «**لا يستكمل**»، «**العبدُ حقيقة الإيمان**»؛ أي: كماله، قال ابن حجر: الحقيقة هنا الكمال ضرورة، لأنَّ من لم يتصف بهذه الصفة لا يكون كافرًا، قوله: «**حتىٰ يخزن مِنْ لسانه**»؛ أي: يجعل فمه خزانة للسانه فلا يفتحه إلَّا بمفتاح إِذْن اللَّه، ومِنْ للتبعيض، أي يخزن لسانه ما كان

باطلًا ولغوًا عاطلًا، فيخزنه من البَاطل خوف العقاب ومن اللغو والهذيان وكثير المباح خوف العقاب، أي لا يصل إلىٰ خالص الإيمان ومحضه وكُنُهه حتىٰ لا ينطق إلَّا بخيْر». اهـ.

- **النقطة الثانية: المرض نوعان:**

- **قال الإمام ابن القيّم في: «زاد المعاد» (٤/ ٣):**

«المرض نوعان: مرض القلوب، ومرض الأبدان، وهما مذكوران في القرآن، قال في مرض الشبهة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالىٰ في حق من دُعي إلىٰ تحكيم القرآن والسنَّة فأبىٰ وأعرض: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٨- ٥٠]، فهذا مرض الشبهات والشكوك.

وأمَّا مرض الشهوات: فقال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فهذا مرض شهوة الزنىٰ، واللَّه أعلم». اهـ.

- **قال القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٣٠، ١٣١):**

«قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي: شك ونفاق، عن قتادة والسدِّي، وقيل: تشوُّف لفجور، وهو الفِسْقُ والغزل قاله عكرمة، وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية». اهـ.

قلت: وبين القرطبي أول آية في بيان معنىٰ المرض، وذلك في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، فقال في «جامعه» (١/ ١٧٦):

«قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر، والمرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم، وذلك إمَّا أن يكون شكًّا ونفاقًا، وإمَّا جحدًا وتكذيبًا، والمعنىٰ: قلوبهم مرضىٰ لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد، قال ابن فارس اللغويِّ: المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو تقصير في أمر، وقال أرباب المعاني: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: بسكونهم إلىٰ الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها، قوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]؛ أي: وكلهم إلىٰ أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرّغوا من ذلك إلىٰ الاهتمام بالدين.

قال الجُنَيْدُ: «عِلَلُ القلوب من اتباع الهوىٰ، كما أنَّ عِلَلَ الجوارح من مرض البدن». اهـ.

● **وقال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١/ ١٨٦ وما بعدها) عن قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾:**

«وأصل المرض: السَّقم، ثُمَّ يُقال ذلك في الأجساد والأديان، فأخبر جل ثناؤه أنَّ في قلوب المنافقين مرضًا، وإنَّما عنىٰ تبارك وتعالىٰ بخبره عن مرض قلوبهم، الخبر عن مرض ما في قلوبهم من الاعتقاد، ولكن لما كان معلومًا بالخبر عن مرض القلب أنه مَعْنِيٌّ به مرض ما هم يعتقدوه من الاعتقاد اسْتُغْنِيَ بالخبر عن القلب بذلك؛ والكناية به عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم، وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفِّق لفهمه، فكذلك معنىٰ قول اللَّه جل ثناؤه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إنَّما يعني في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين والتصديق بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند اللَّه مرض وسقم، فاجْتَزَأ بدلالة الخبر عن قلوبهم علىٰ معناه عن تصريح الخبر عن اعتقادهم، والمرض الذي ذكره اللَّه جل ثناؤه: أنَّه في اعتقاد

قلوبهم الذي وصفناه هو شكهم في أمر محمد، وما جاء به مِنْ عِندْ اللَّه وتحيّرهم فيه، فلا هم موقنون به إيقان إيمان، ولا هم منكرون له إنكار إشراك، ولكنهم كما وصفهم اللَّه ﷻ، مذبذبون بين ذلك لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، كما يقال: فلان يُمَرِّض في هذا الأمر، أي يضعف العزم ولا يصحح الرويّة فيه [ثُمَّ روىٰ بسنده ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة أنه الشك الذي دخلهم في الإسلام].

[١٨٦] حدثني . . . . عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: «هذا مرض في الدين وليس مرض في الأجسام، هم منافقون».

القول في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾: قد دللنا آنفًا أنه الشك، فالمرض الذي أخبر اللَّه تعالىٰ عنهم أنه زادهم علىٰ مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشّك والحَيْرة قبل الزيادة، فزادهم اللَّه بما أحدث من حدوده فرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين من الشك والحيْرة إذا شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم ذلك، إلىٰ المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف مِنْ حدوده وفرائِضِهِ التي كان فرضها قبل ذلك، كما زاد المؤمنين به إلىٰ إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذْ آمنوا به إلىٰ أيمانهم من حدوده وفرائضه إيمانًا كالذي قال جل ثناؤه في تنزيله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلىٰ رجاستهم هو ما وصفنا، والزيادة التي زيدها المؤمنون إلىٰ إيمانهم هو ما بيَّنَّا، وذلك هو التأويل المجمع عليه». اهـ.

- **النقطة الثالثة: صفة مرض الدين وبيان تفاصيله وأسباب الشفاء:**

قلت: وقال ابن كثير في تفسيره: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٧) وقال مثل

ذلك ثُمَّ ذكر ما قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ثُمَّ قال زيد: «زادهم رجسًا: شرًّا إلىٰ شرهم وضلاله إلىٰ ضلالهم».

وهذا الذي قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ حسن، وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأوَّلون وهو نظير قوله تعالىٰ أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]». اهـ.

- **وقال ابن القيم في: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ١٣ وما بعدها)**:

«وهذا حال القلوب عند ورود الحقّ المُنزَّل عليها: قلبٌ يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب تيقّنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمىٰ فلا يدري ما يراد به.

والمقصود ذكر مرض القلب وحقيقته، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ؛ فإنَّ الجهل مرض، شفاؤه العلم والهدىٰ، والغيّ مرض، شفاؤه الرشد، وقد نزَّه اللَّه سبحانه نبيّه عن هذين الداءين فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، ووصف رسولُهُ ﷺ خلفاءه بضدهما فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي**» [رواه الترمذي في سننه (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي].

وجعل كلامه سبحانه موعظة للنَّاس عامة وهدىٰ ورحمة لمن آمن به خاصّة، وشفاءً تامًّا لما في الصدور، فمن استسقىٰ به صحَّ وبريء من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بـــلَّ مـــن داء بـــه ظـــن أنَّـــه نـجـا وبـه الـداء الـذي هـو قـاتـلـه

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، والأظهر أنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ هاهنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين.

● ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعيّ، لفساد يعرض له يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإمَّا أن يذهب إدراكه بالكليّة كالعمىٰ والصمم والشلل، وإمَّا أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإمَّا أن يدرك الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرًّا، والخبيث طيّبًا، والطيب خبيثًا . . . وإذا عُرِف هذا، فالقلب مُحْتاج إلىٰ ما يحفظ عليه قوّته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات، وإلىٰ حمية عن المؤذي الضار، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات، وإلىٰ استفراغه من كلّ مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات.

● ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوّره للحق وإرادته له فلا يرىٰ الحق حقًّا، أو يراه علىٰ خلاف ما هو عليه، أو ينقص إدراكه له، وتفسد به إرادته، فيبْغض الحقّ النافع، أو يحب الباطل الضار، أو يجتمعان له، ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له تارة بالشك والرَّيب، كما قال مُجاهد وقتادة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]؛ أي: شكّ، وتارة بشهوة الزنا، كما فسّر به قوله تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فالأول مرض الشبهة والثاني مرض الشهوة.

[● النقطة الرابعة: تنوّع المرض بين درجات الألم في الحال والمآل:]

فمرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم، كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأنَّ سَكْرَة الجهل والهوىٰ تحول بينه وبين إدْراك الألم، وإلَّا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوارٍ

عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضيْن وأصعبهما، وعلاجه إلىٰ الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم في الحال، كالهمّ والغمّ والحزن والغيظ وهي التي لا تزول إلَّا بالأدوية الإيمانية، ولهذا يُقال: «شفىٰ غيظه» إذا استولىٰ عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفىٰ قلبه، قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فالغيظ يُؤلم القلب ودواؤه في شفاء غيظه، فإنَّ شفاه بحقّ اشتفىٰ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضًا من حيث ظنَّ أنه يشفيه.

وكذلك مرض الجهل يؤلم القلب، فمن النَّاس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صحَّ من مرضه بتلك، وهي في الحقيقة إنَّما تزيده مرضًا إلىٰ مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه؛ بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبُرْئه، قال النَّبِيّ ﷺ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتيَ بفتواهم: «**قتلوه قتلهم اللَّه، ألا سألوا إذْ لم يعلموا؟ فإنَّما شفاء العيّ السؤال**» [رواه أبو داود في «سننه» (٣٣٦) والحاكم في «المستدرك» (٦٣٠) وصححه ووافقه الذهبيّ، بهذا اللفظ وبقية الحديث لم يثبت، وصححه ابن السكن، وانظر «التلخيص الحبير» ح(٢٠١)].

وكذلك الشك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتىٰ يحصل له العلم واليقين، ولمَّا كان ذلك يوجب له حرارة، قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره وحصل له بَرْدُ اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده، وينشرح بالهدىٰ والعلم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

• **والمقصود**: أنَّ من أمراض القلوب ما يزول به الأدوية الطبيعية، كإزالة أسبابه، أو المداواة بما يضاد تلك الأسباب [مثلًا بأخذ المضادات الحيوية وأدوية الضغط وزيادة السكري لمَّا يحزن أو يغتم].

ومنها: ما لا يزول إلَّا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مِمَّا للبدن.

• **والمقصود**: أنَّ صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف علىٰ هذين الأصلين، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، فأخبر أنَّ الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنَّما يحصل لمن هو حيّ، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فأخبر سبحانه أن حياتنا إنَّما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه اللَّه ورسوله من العلم والإيمان، فَعُلم أنَّ موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإنَّ أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقُبِرَتْ في أبدانهم، فقال اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلىٰ الأنبياء روحًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]؛ لأنَّ حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطبيعية هي التي خصَّ بها سبحانه مَنْ قَبِلَ وحيه وعَمِل به فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، كما أخبر أنه يُشْقىٰ المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، فأهل

الإيمان والهدىٰ لهم شرح الصدر واتسّاعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

● **والمقصود**: أنَّ حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كلّ شرّ فيه.

فلمَّا كان في القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحبّ، كل كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبّة في طلب الحق ومحبته وإيثاره علىٰ الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنْعم عليه.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣]، فأقسم ﷻ بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، علىٰ أنَّ كل واحد في خُسْر، إلَّا من كَمَّل قوّته العلمية بالإيمان باللَّه، وقوّته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كماله في نفسه، ثُمَّ كَمّل غيره بوصيّته له بذلك، وأمره إيَّاه به وبملاك ذلك، وهو الصَّبْر، فكمَّل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمّل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيّته له بالصَّبر عليه؛ ولهذا قال الشافعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لو فكرّ النَّاس في سورة العصر لكفتهم». اهـ.

● **النقطة الخامسة: فقه مرض الدين:**

فإذا كان ذلك كذلك وتقرر عندك ما مضىٰ بدليله من الكتاب والسنَّة والإجماع وتفاسير ذلك كله وبيان معانيه، فاعلم أنَّ القاعدة الكلية الشرعية الأصولية العقلية: «الحكم علىٰ الشَّيء فرع عن تصوُّره»، فإنك إن لم تتم لك منظومة صحة التصور

والإدراك والفهم والوعي، ما استطعت أن تحكم علىٰ أي شيء أردت الحكم عليه بوجوهه العلمية الرشيدة، ولذلك صوّرت لك مرض الدين وأنواعه ودرجاته وصفاته وأسبابه وعلل الشفاء والعلاج، ومن ثُمَّ تعلم الداء والدواء، وتصير فقيهًا في ضبط دينك وحفظه والثبات عليه؛ لأنَّ ذلك هو المُنَجِّىٰ والخلاص ودعامة الفلاح والصلاح، وملاك الأمر كله، ويكفي ما قال الشافعي آنفًا قال: «لو فكّر النَّاس في سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ لكفتهم»، وإنَّما يكون الفكر في هذه السورة بحسن الفهم والفقه والتدبّر والتصوّر وإدْراك المعاني وبيان شروط الهداية والتوفيق والسداد والرشاد من هذه الصورة الجليلة، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وذلك لأنَّ معرفة الدين هو السبيل إلىٰ مرضاة اللَّه ودخول الجنَّة والسلامة في الدارين، وهذا لا يكون إلَّا بالعلم، ومن أجل ما يقال في هذا السياق:

ما رواه ابن أبي شيبة في: «المصنف» (٣٨٤٧) من كلام خبير الفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فعن أبي مسعود عن حذيفة قال: «أما تعرف دينك يا أبا مسعود؟! قلت: بلىٰ، قال: فإنَّها لا تضرك فتنة ما عرفت دينك، إنَّما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل فلم تدْر أيَّهما تتبع فتلك الفتنة».

وروىٰ أبو نعيم في: «حلية الأولياء» (٩١٧) عن حذيفة بن اليمان قال:

«ما الخمر صرفًا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة».

وإنَّما النجاة من الفتن ومضلاتها: بمعرفة الدين والاستقامة علىٰ الصراط المستبين، والثبات علىٰ مثل ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ وأصحابه الراشدين المهديين، روىٰ الترمذي في «سننه» (٢٦٧٦) وقال حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢، ٤٣) واللفظ له من حديث العرباض بن سارية، وفيه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قد**

تركتكم علىٰ البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك»، فالحلال بين والحرام بين، وقد أقيمت الحجة، وظهرت المحجّة، فلا لبس في الدين ولا غموض إلَّا علىٰ من قصّر في التعليم، ومعرفة الضلال من الهدىٰ، والغي من الرشاد، وفساد المنهجية وصلاح المعتقد السليم.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

قال عبد الرحمن السعدي في: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» (ص: ٢٧٢):

«يقول تعالىٰ: ﴿أَوَ مَن كَانَ﴾ من قبل هداية اللَّه له ﴿مَيۡتٗا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي والبدع ﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين النَّاس في النور، متبصّرًا في أموره، مهتديًا لسبيله، عارِفًا للخير مؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفًا بالشَّر مُبغضًا له، مجتهدًا في تركه في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغيّ؟!

قوله: ﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والشقاء، فنبَّه تعالىٰ العقول بما تدركه وتعرفه أنَّه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكأنَّه قيل: فكيف يؤثر مَنْ له أدنىٰ مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن

يبقىٰ في الظلمات مُتحيرًا، فلم يزل الشيطان يُحسن لهم أعمالهم ويزيّنها في قلوبهم، حتىٰ استحسنوها ورأوها حقًا، وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشِّر والقبائح، وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون غير متساوين». اهـ.

فهذا ما كان من هذه المقالة، والحمد للَّه رب العالمين، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

الباحث الشرعي الدكتور عيد بن أبي السعود الكيال

دكتوراه من كلية الشريعة جامعة الأزهر بالقاهرة